الكتاب المقدس زاد المؤمن، الجزء الثالِث
المتروبوليت سابا (اسبر)

ماذا بعد؟

بعد "إله آبائنا" بدأ الله يكشف ذاته عبر صفاته، ولكن عمليّاً. فالشعب الذي اختاره جاهل وجاحد: "لا لأنّكم أكثر من جميع الشعوب فأنتم أقلّها" (تث٧/٧ ٧: ٧). شعب قاسي الرقبة، لا يفهم إلا عمليّاً وبصعوبة بالغة "فأنت شعب عنيد" (تث ٩: ٦)، أليس هذا هو واقع البشر حتّى اليوم؟ فعرّف موسى أوّلاً أنّه هو الكائن: "أنا هو الذي هو" (وبالعبرية: "أشير إهييه أشير" (خروج ٣: ١٤)، وبدأ المسيرة فعليّاً. فصار الله يُعرَف بفعله في الطبيعة/ صار إلهنا الذي يرعانا. الإله الذي جفّف البحر الأحمر، الذي أطعمنا منّاً في البريّة، الذي فجّر الماء من الصخرة، الذي شفانا من لدغات الأفاعي... وهكذا بان الله سيّد الطبيعة.

بدأت المواجهة مع القبائل والشعوب الأخرى. والنزاعات هذه كانت مألوفة، في ذلك الزمان، خصوصاً مع الشعوب الرحّل (لنتذكّر غزوات القبائل، غارات البدو...). ومازالت الأرض ترزح تحت الاستعمار والاحتلال بكلّ أشكاله. هنا ظهر الله سيّد التاريخ، لكن سياسته مع جماعته اختلفت. فمع انّه القوي بامتياز، والأقدر من كلّ الآلهة، فهو لا ينصر قبيلته في كلّ حين. عندما ينتصرون يكون هو الناصر والأقوى، وعندما ينغلبون يكون هو المنسحب من نصرتهم والأقوى أيضاً. لماذا تركنا الله؟ سؤال يتردّد مراراً على صفحات العهد القديم. وما زلنا، حتّى اليوم، نتساءل لماذا تركنا الله في هذه المحنة أو تلك؟ لماذا سمح بالتجربة؟ لماذا لا يوقف الشرور عنّا؟ ألا نتصرّف كشعب العهد القديم في أحيان كثيرة؟ ألا نتصرّف كما لو أنّ الله إلهنا نحن فقط جماعته بامتياز، وباقي البشر ليسوا من صنيعته، وفي أحسن الأحوال من درجات دنيا؟

وكان الجواب الإلهي أنا معكم طالما أنّكم أوفياء، لكنّكم عندما تتركون عهودي أترككم لِما تركتموني من أجله. فعرفوا أنّه إله سيّد وعليهم طاعته. وفروضه ووصاياه تُلزِم بتغيير أخلاقي وسموّ روحي.

آن الأوان، إذاً، لأنّ يرتفع البشر إلى مستوى العدل، فصارت شريعة الله لهم أن يقيموا العدل "العين بالعين والسنّ بالسنّ..." (خروج ٢١: ٢٤). وكانت قفزة نوعيّة أمام مجتمع يسوده الثأر والانتقام أضعافاً مضاعفة.

وماذا يريد هذا الإله بعد؟

العدل جيّد، لكنّه درجة على طريق المعرفة الإلهيّة، لكنّها درجة ليست كافية، وعلى الإنسان أن ينتقل من الحرف إلى الروح، من القانون إلى غاية القانون، من الشرائع إلى هدفها، من الطقوس إلى قلب ربّها. عليه النفاذ من الجسم إلى القلب. فالرحمة أهمّ من العدل (مت ٩: ١٣). والذبيحة الحيوانيّة صورة لذبيحة القلب "الذبيحة لله روح منسحق" (مز ٥٠: ١٧). والعبادة ليست بالأناشيد والبخور والاحتفالات الفخمة، بل بالرحمة والعدل والإحسان. يطلب هذا الإله قلوباً لحميّة لا حجريّة (راجع الأنبياء، وبخاصة إشعياء ويوئيل).

إلا أنّ قساوة الإنسان تدفعه إلى مقاومة السمو الروحي، فكان المنفى وسيلة التطهير من أدران الدنيوية والدهريّة. وسمح لنبوخذنصّر بهدم الهيكل الذي هزأ الله بالشعب عندما أراد أن يحصره فيه. وفي المنفى في بابل، وكانوا قد قطعوا ألف سنة مع هذا الإله، ومازالوا لا يستطيعون إدراك انّه الإله الأوحد، وأنّه ليس أسير أيّ مكان ولو كان هيكل أورشليم. فرتّلوا: "على أنهار بابل... كيف نرنّم للربّ ترنيمة في أرض الغربة" (مزمور ١٣٦: ١). والقصد هل يسمع ترنيمنا، فنحن بعيدون جدّاً عنه. صدمة النفي كانت شديدة لكنّها مطهِّرة ومنقيّة. لقد خلق السبي البابلي البقية الأمينة، التي ستكون وفية لتعليم إلهها، وستجعل حياتها موافقة لوصاياه. ومنها سيأتي المعمدان ومريم العذراء، وكلّ الذين استطاعوا قبول يسوع المسيح.

على ضوء هذه القراءة، نفهم الكتاب المقدَّس ونسمع كلام الله الموجَّه إلينا شخصيّاً. قراءة كهذه تعرف أنّ الكتاب المقدّس كتاب دينيّ، لا كتاب تاريخ، وإن حوى بعضاً منه، ولا كتاب علم وعلوم، وإن ذُكرت معلومات تطابقت أو تناقضت مع العلم الحديث، ولا كتاب حكمة بشريّة، ولو استخدم حكمة زمانه لتربية البشر وتهذيبهم. إنّها مسيرة الله مع البشر. مسيرة شخصيّة ومرافقة حميمة لهم، حتّى إنّها اكتملت بموته على الصليب، من أجلهم ومن أجل خلاصهم. هو كتاب نلقى فيه إلهنا ونتعرّف إليه ونسمع كلامه.

فهلّا بدأنا بفهم قراءتنا المسيحيّة للكتاب؟